محاضرات مقياس تاريخ بلدان المغرب الحديث (16-19م)

المحاضرة الثالثة:

المد العثماني إلى الحوض الغربي للمتوسط.

يرى البعض أن التواجد العثماني في بلاد المغرب العربي لم يكن نتيجة لاستراتيجيات مدروسة، وإنما هو حتمية فرضها الصراع القائم بين الدويلات القائمة آنذاك في بلاد المغرب والذي تحول فيما بعد إلى صراع دولي شارك فيه العثمانيون والإسبان، هاته الأخيرة التي كانت لهم رغبة في الاستيلاء على خيرات المغرب العربي، رغبة منهم في الانتقام، والتعويض عن الممتلكات المفقودة في القارة الأمريكية .

وقبل ظهور العثمانيين في شمال إفريقيا كان النشاط الجهادي ضد الاسبان والبرتغاليين غير منظم حتى ظهور الأخَوين خير الدين وعروج بربروس .

وحسب روبير مانتيران، فقبل وصول العثمانيين إلى الحوض الغربي للمتوسط تبنى المغاربة عمليات القرصنة كنوع من الحروب البحرية التي يتماشى مع فريضة الجهاد، ويترتب عليها بالمقابل الثراء الذي يجنيه القراصنة من الغنائم من عبيد وسلع.

-البدايات الأولى للتوسع العثماني في الحوض الغربي للمتوسط.

لقد بنيت الاستراتيجية العثمانية للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط على إنشاء قواعد متقدمة في الحوض الغربي للمتوسط، ولهذا فإن أهم وأقرب منطقة له والعدو الأول لإسبانيا والعالم النصراني هي دول المغرب العربي حيث تعود أولى الاتصالات العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط إلى سنة1487 م، وذلك في رسالة من سكان غرناطة إلى السلطان العثماني يطلبون فيها العون والنجدة، ولدراسة الوضع الحربي والعسكري في المنطقة أرسل السلطان أحد بحارته المدعو كمال رايس، الذي بقي في المتوسط إلى غاية سنة1495 م.

وما إن فرغ العثمانيون من تسوية الخلاف الصفويين سنة 1514م، واحتلالهم لمصر سنة 1517م، حتى أصبح الحوض الغربي للمتوسط مطلبا ملحا للسياسة العثمانية.

أما عن الإخوة بربروس، فمنذ سنة 1510م طلب السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد منهم أن يدعموه في مواجهة المد الإسباني الصليبي الزاحف على بلاده، على أن يتقاسم معهم خمس غنائم الجهاد، غير أن الظروف دفعت بهم إلى نقل جهادهما ومركز أعمالهم البحرية إلى المغرب الأوسط، من ذلك أن خير الدين بعد أن استقر مدة في مدينة جربة سنة 1509، قد طمحت نفسه إلى الاستيلاء على تونس.

بعد استقرار الأخوين عروج وخير الدين في جربة، شرعا بحلول عام 1512 في شن غارات كبيرة على مختلف السواحل والموانئ الأوربية الغربية وجزرها، مثل: سردينيا، ونابولي، بالإضافة إلى تعرضهم إلى السفن الأوربية التي كانت تجوب البحر

المتوسط محملة بالبضائع أو الجنود، فغنما من ذلك غنائم هائلة قدما بها إلى جزيرة جربة حيث قاما ببيعها، ودفع خمس الغنائم إلى السلطان، وتصدقا على الفقراء
والأهالي. فأزداد كل من السلطان التونسي وأهالي تونس بهما تعلقا. وذاع صيتهما في كل سواحل غرب البحر المتوسط، وأثارا موجة من الرعب فيها.

وبالمغرب الأوسط عقد الإخوة بربروس مع سكان مدينة الجزائر عقدا يقضي ببقاء هؤلاء المجاهدين في المغرب الأوسط مقابل إلحاق هذا الإقليم بالدولة العثمانية. وكان ذلك عن طريق رسالة بعث بها سكان الجزائر عن طريق وفادة تزعمها أبو العباس أحمد بن القاضي إلى سليم الأول .

هذا وقد أبدت الدولة العثمانية استجابة لطلب سكان مدينة الجزائر، ومنذ تاريخ 1519م (صارت الجزائر إيالة عثمانية، وخير الدين بربروس حاكما عليها بأمر من الخليفة العثماني سليم الأول. الذي أمده بألفين من الإنكشارية، وسمح لرعاياه بالتطوع في الجيش ببلاد المغرب الأوسط، وهكذا دخل العثمانيون في حلبة الصراع البحري الدائر بين العرب والإسبان في الأندلس والحوض الغربي للمتوسط .

وفي حقيقة الأمر أن الإخوة بربروس استطاعوا تجميع القوات الإسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام ومنعهم من التوسع في سواحل الشمال الإفريقي. كما ساعد الجهاد البحري الذي تزعمه الأخَوان خير الدين وعروج بربروس في الجزائر منذ القرن 16م على توحيد صفوف المسلمين بالسواحل المغاربية، فأصبحوا بمثابة كتلة حضارية واحدة تحت راية الدولة العثمانية، هذه الدولة التي كان لها الفضل في وقف الانهيار الذي حل ببلاد الإسلام من مشرقها إلى مغربها، والذي ابتدأ في فترة سابقة على يد المغول ببغداد والصليبين بالشام ثم الأندلس.

وهكذا أصبحت الجزائر أحد القواعد العثمانية المتقدمة والمهمة في الجزء الغربي من البحر المتوسط، حيث أفضت مضجع أوربا كلّها، وهاجم رياسها إيطاليا وإسبانيا وأغلب السواحل الأوربية. ولم يكن العثمانيون ليتفرغوا للتوسع غربا إلا بعد أن يفتحوا جزيرة رودس معقل فرسان القديس يوحنا سنة 1523م، حيث تعتبر الجزيرة قاعدة متقدمة للإسبان في الجزء الشرقي للبحر المتوسط، ويذكر ستانلي لان بول: "لقد سقطت جزيرة رودس آخر عقبة لاستكمال سيطرة الأسطول العثماني على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، ومن الآن وصاعدا لا توجد سفينة مسيحية آمنة بهذه المياه، فالبحريات القديمة في هذا الوقت كانت أقلّ قيمة، حيث لا توجد قوة تتحدى التفوق العثماني في بحر إيجة، البحر الأيوني وبحر الأدرياتيك".

وقد راسل السلطان العثماني البابا يعلمه أن القوات العثمانية أصبحت حرّة فيما يتعلق بآسيا، وأن الجزء الغربي من المتوسط سيصبح عما قريب عثمانيا، وفي المقابل حاول البابا توحيد صفوف المسيحيين لكن البنادقة حلفاء البابا أخبروا سليم الأول عن فكرة البابا، وفي غمرة تحضي ا رت البابا ليو العاشر، وصلت اخبار وفاة السلطان سليم الأول، حيث أعلنت الصلوات والشكر وألغيت الحملة الصليبية ...لأن الجميع كان يعتقد أن سليمان القانوني رجل سلام.

-التنسيق العثماني الجزائري غرب المتوسط: 1538 – 1529

هناك أمرين حدثا سنة 1529 مهدا لتصاعد التنسيق الجزائري العثماني في الجزء الغربي للمتوسط الأول: هو تمكن خير الدين من تدمير قلعة البينون المقابلة لمدينة الجزائري في شهر ماي سنة 1529 الذي وفر ملجأ آمنا للسفن الجزائرية من العواصف؛ ثانيا: التوغل العثماني في شرق أوربا ومحاصرة فيينا التي كانت تمثل الحدود الشرقية للإمبراطورية الإسبانية. إن السيطرة على البحر من قبل المسلمين، لم تكن تعني تخريب التجارة الأوربية فقط أو تحطيم السواحل الواقعة في الجنوب؛ وإنما أصبحت تعبر عن التهديد المباشر الذي صار يمثله المسلمون للديانة المسيحية .فمع وصول العثمانيين إلى فيينا سنة 1529انتشرت فكرة قرب نهاية العالم في الأوساط الشعبية الأوربية؛ حيث أنتج هذا الوضع أشكالا مختلفة من الثقافة في الأوساط الدينية والأدبية والفنية والسياسية.

لقد أعقب تحطيم قلعة البينيون غارات بحرية واسعة قام بها البحارة الجزائريون، ولعل أشهرها تلك التي قادها إيدين رايس (الملقب في الكتابات الغربية بالشيطان الضارب) وصالح رايس ضد السواحل الإسبانية؛ فعند عودة القائد العام للأسطول الإسباني من جنوة، اشتبك مع 14 سفينة كان يقودها إيدن رايس؛ لقد كانت النتيجة كارثية للأسطول الإسباني.

عاتبت الإمبراطورة الاسبانية زوجها شارل الخامس، وذكرته أن ضياع قلعة البينيون غير التوازن الموجود بشمال إفريقيا؛ وأن كلا من جزيرة أيبيريا وقلاع شمال إفريقيا وبالأخص وهران وبجاية؛ أصبحتا تحت تهديد مدافع بحارة الجزائر، وأن كل سفينة أخذت منا أصبحت تشكل خطراً.

وقد جاء الرد الإسباني على تحطيم قلعة البينيون عشوائيا، فقد هاجم أندري دوريا شرشال بأمر من الإمبراطور شارل الخامس لكن الحملة فشلت بعد سوء التنظيم التي شهدته منذ البداية. وقد تزامنت هذه الهجمات الجزائرية مع التوغل العثماني في شرق أوربا.

وقام خير الدين بعد هذا الانتصار بإرسال سفينة محملة بالهدايا إلى السلطان العثماني، يعلمه فيها بتحرير قلعة البنيون، وكان رد السلطان العثماني أن سلمه سفينة من نوع قادرغة ذات العشرين مقعدا مزودة بمدافع متطورة. وكان السلطان يعلم جيدا أن المسافة بين الإمبراطوريتين تمنع من حدوث توسع ناجح في الجزء الغربي من المتوسط، إلا في حالة استخدام بحارته المتواجدين بشمال إفريقيا.

وخلال هذه الفترة بدأ التقارب العثماني الفرنسي، يطفوا على الواجهة الدولية آنذاك؛ ففي سنة 1534 عين أول قنصل فرنسي بطريقة رسمية في العاصمة إسطنبول، وبعودته إلى فرنسا في السنة نفسها فتحت الأبواب لتصاعد التأثير الفرنسي في البلاط العثماني.

ومما زاد من تأزم موقف إسبانيا هو التحالف الرسمي بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا سنة 1536، فيما عرف بمعاهدة الامتيازات والتي تعتبر أول اتحاد ديبلوماسي يقوم على مبدأ غير إيديولوجي بين دولة مسيحية وأخرى إسلامية. وقد استغل العثمانيون الصراعات القائمة بين الأمراء الألمان وشارل الخامس؛ لدعم مركزهم في أوربا الغربية.

كما استطاع العثمانيون من خلال هذه المعاهدة، ضمان القوة الفرنسية إلى جانبهم، ومنع أي تحالف فرنسي – إسباني قد ينهي التواجد العثماني غرب المتوسط، ليس هذا وفقط بل استفاد العثمانيون من الموانئ الفرنسية لاستخدامها كقواعد في هجماتهم ضد المدن الإيطالية وكذا في حربهم مع الاسبان.

ومن جانب آخر أنتجت المعاهدة العثمانية الفرنسية دوراً جديداً للأسطول الجزائري الذي سيكون مطالبا في المستقبل بتنفيذ هجمات مت ا زيدة على المواقع الإسبانية الساحلية، بطلب من
فرنسا التي لم تكن حتى تلك الفترة تملك قوة بحرية تمكنها من مجابهة اسبانيا.

-السيطرة البحرية العثمانية:

بعد عودته من تونس سنة 1535، عين خير الدين كقائد عام للأسطول العثماني، كما أنه استطاع أن يحتفظ بلقبه كحاكم عام على إفريقيا، خلفا لإبراهيم باشا الذي كان يعمل فيما مضى على منح امتيازات واسعة للبنادقة موطن ولادته الأصلي؛ لكن مع وصول خير الدين إلى القيادة، تغيرت النظرة إلى البنادقة، فخير الدين كان يرغب في جعل البحر الأدرياتيكي بحراً إسلاميا.

ويذكر خير الدين أنه تمكن من فتح ثمانية وعشرين جزيرة كانت خاضعة لجمهورية البندقية، وجعل في كل منها حامية. كل الظروف أصبحت تنذر بالحرب؛ فهذه الأحداث دفعت البابا كليمنت الثالث إلى حشد تحالف مسيحي، وقد أعلن عن التحالف المقدس بروما في فيفري 1538.

وفي ماي 1538 أعلن العثمانيون الحرب على البنادقة، وقد انضمت إلى القوات العثمانية سرية بحرية كان يقودها، كل من صالح ا ريس ودرغوث ا ريس؛ وكان دور بحارة الجزائر بارزاً في هذه المعركة.

وإن الانتصار الذي حققه الذي حققه خير الدين في لابريفيزا ضد عدوه أندري دوريا، سيدعم سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط خلال الثلاثين سنة القادمة، أي إلى غاية معركة ليبانت 1571. وفي أكتوبر 1540 عقد العثمانيون والبنادقة معاهدة سلام جديدة، كرست سيطرة العثمانيين على بيلوبونيس في اليونان، في حين استعاد البنادقة حقوقهم التجارية على الأراضي العثمانية.

لقد خلفت الهزيمة التي مني بها الإسبان في المعركة، مساسا بالهيبة الاسبانية في المتوسط، ولهذا أصبح شارلكان يفكر بشكل جدي، القيام بعمل عسكري يسترجع به الهيبة الإسبانية المفقودة، وكان الحل الوحيد هو استهداف الجزائر، القاعدة العثمانية المتقدمة والأكثر أهمية في الصراع العثماني الإسباني. وتخوفا من أن تفشل الحملة أجرى شارل الخامس، اتصالات مع خير الدين يطلب منه العمل تحت رايته، على أن يلقبه حاكما على كل إفريقيا، وقد استغل خير الدين الفرصة لكشف الخطة التي يود أن يدخل بها شارل الخامس إلى الجزائر.

وصل الأسطول الإسباني الجزائر بتاريخ 19 أكتوبر 1541، وقد كانت الحملة تعتبر من إحدى أعظم الحملات البحرية خلال القرن السادس عشر حيث تبدوا الحملة ضخمة أكثر من اللازم مما يثبت أن العامل النفسي كان له التأثير الأبرز في حشد أعداد هائلة من العدة، فالانكسارات المستمرة أمام الأتراك جعلت شارلكان يفقد الثقة في هزمهم ويربط الانتصار في المعركة بالكمية.

انتهت الحملة بفشل ذريع مني به الإسبان، ما دفع شارل الخامس إلى الانسحاب، وهذه الهزيمة جعلته يعتزل الحياة السياسية ويتفرغ للعبادة في إحدى الأديرة. هذه الظروف شجعت الفرنسيين على طلب المساعدة من العثمانيين لاستعادة نيس، وقد رحب الفرنسيون بخير الدين الذي نزل في مرسيليا، ومنح له ميناء طولون لقضاء الشتاء به.

عبرت هذه الحملة عن تصاعد التأثير الفرنسي في الباب العالي، وأن أغلب الغارات البحرية المستقبلية على السواحل الإسبانية، ستكون بطلب من الفرنسيين، وما يؤكد التأثير الفرنسي؛ قضية عزل حسن ابن خير الدين، الذي رفض توجيه حملة ضد السواحل الإسبانية بطلب من فرنسوا الأول، ورغم أن الباب العالي ادعى أن قضية عزل حسن آغا ترتبط بسوء الجوار مع إخوانه المغاربة، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن عزل حاكم الج ا زئر جاء بعد إلحاح السفير الفرنسي في اسطنبول.

وفي سنة 1552، أرسل هنري الثاني مبعوثه إلى الجزائر، يطلب من صالح رايس أن ينسق مع القوات الفرنسية لمهاجمة السواحل الإسبانية، وقد جاء رد صالح رايس سريعا وخرج من ميناء الجزائر في جوان 1553؛ مع أربعين سفينة حربية ونزل في مايوركة فهاجم أريافها وألحق أضراراً كبيرة بحامية ماهون .

إن المشاكل الدينية التي كانت تمر بها أوربا استغلها العثمانيون، لدعم موقفهم في الجزء الغربي من المتوسط، لقد كانت الدولة العثمانية تمثل الجنة بالنسبة للمضطهدين دينيا، وقد اعتبر لوثر أن الرب أرسل الدولة العثمانية كإشارة لإيقاظ المسيحيين من سباتهم.

بعد هزمهم الأسطول الاسباني في طرابلس سنة 1560، بدأ العثمانيون يفكرون في مهاجمة مالطة واستعادتها من فرسان القديس يوحنا، ومنذ سنة 1564 بدأ التحضير للحملة، وكان الأوربيون يعلمون عن هذه التحضيرات، لكنهم لم يكونوا يعلمون بالمكان المستهدف بالضبط أما فرسان مالطة فكانوا متأكدين من أن جزيرتهم هي الهدف التالي، ولهذا استعدوا على الرغم من نقص الدعم من أوربا التي كانت مشغولة بتسوية شؤونها الداخلية.

لقد خلف الحصار العثماني للجزيرة خسائر هائلة في الصفوف العثمانية، فقد توفي وجرح حوالي ستة آلاف مقاتل، كما شهد الحصار وفاة أشجع القادة العثمانيين درغوث باشا .ورافق الجثمان إلى طرابلس حسن باشا القائد العام للحملة، وعين مكانه على الجزائر علج علي.

وبعد عامين على هذه الأحداث، وردت برقية سرية من الباب العالي، تعلم فيها القيادة العثمانية حاكم الجزائر من هجوم محتمل سينفذه الاسبان ضد الجزائر، وفعلا ففي سنة 1567 حاول خوان فاسكون إحراق الأسطول الجزائري المتمركز في الميناء، لكن الحراس تفطنوا له، وتم ملاحقته والقبض عليه واعدامه.

كانت قبرص تمثل عائقا للدولة العثمانية للربط بين ولاياتها في المشرق، وكان لابد من اسقاطها ولهذا اتهم العثمانيون البحارة القبارصة بالتعرض للسواحل السورية، وكان هذا هو السبب المباشر للحملة، التي قادها بيالي باشا ضد قبرص، تمكن من خلالها الاستيلاء على الجزيرة في سبتمبر1570.

لم يتقبل البنادقة استيلاء العثمانيين على جزيرة قبرص، وبتاريخ 28 ماي 1570، أعلن في كنيسة سانت بيار بروما، عن تحقيق الاتحاد بين إسبانيا، إيطاليا، وألمانيا، ضد العثمانيين، واجتمعت سفن جنوة والبندقية في ماسينا. وقد كانت القوات العثمانية تحت قيادة بورتو باشا وزاده باشا وحاكم الجزائر علج علي، ورغم أن كل البراهين كانت تشير

إلى انتصار العثمانيين، إلا أنهم انهزموا نظرا للتزمت الذي أبداه قادة الجيش البري ورفضهم مقترح علج علي، الذي كان يقضي بعدم الدخول في اشتباك قرب الساحل مما يصعب عملية المناورة، أما في حالة بقاء الأسطول قرب الساحل، فيجب أن تقصف مدافع القلاع الساحلية الأسطول المسيحي ثم تدخل البحرية العثمانية في اشتباكات مع العدو.

لقد كانت الخسائر العثمانية ضخمة جدا، فقد أبيد أغلب الأسطول العثماني، ولم ينجوا من المعركة سوى الأسطول الجزائري المشارك تحت قيادة علج علي، ليس هذا وفقط بل حطم كل الأسطول المالطي الذي كان متمركزا على الجناح الأيسر. استقبل علج علي استقبال الأبطال من قبل السلطان العثماني، وعين قائدا عاما للبحرية العثمانية.

يرى الكثير من المؤرخين أن معركة ليبانت، كانت ذا نتائج نفسية أكثر منها مادية؛ فقد حطمت العقدة النفسية التي كان يعاني منها المسيحيون عند ملاقاتهم الجيش العثماني، كما أزالت
الفكرة القائلة بأن الجيش العثماني جيش لا يقهر.

وما إن وصلت الأخبار إلى البندقية بانتصار الحلف المسيحي، حتى دقت الأجراس في مختلف أنحاء المدينة، وأعلنت ثلاثة أيام للاحتفالات بالنصر، واعتلى قوس النصر برج المسرح الروماني، في حين راودت الأحلام البابا بيوس الخامس؛ بتوجيه حملة صليبية يتم من خلالها استعادة فلسطين. ومهما يكن؛ فإن انتصار ليبانتو قد ضخمه المسيحيون أكثر من اللازم، ففي الوقت الذي استطاع الأتراك بناء أسطول أكثر قوة من السابق في مدة لا تتجاوز السنة، كان البنادقة لا يزالون منتشين بانتصاراتهم.